الفصل التاسع

كوسوفو المأساة المتكاملة!!

obeikan.com

كوسوفو.. وما حدث فيها بمباركة العم سام.. صفحة من أسوأ صفحات سجلهم الأسود.. والإجرامي.. وبادعاءات كاذبةحولت قنابلهم بمشاركة حلف شمال الأطلنطي[1] تلك الدولة الهادئة إلى مأساة متكاملة.. فقد زعم وقتها الرئيس الأمريكي "كلينتون" وتابعه "تونى بلير" رئيس الوزراء البريطاني أن الهجمات الجوية هي لأجل مساعدة شعب كوسوفو.. بينما حقيقة ما فعلوه هناك أنه لم يكن إلا شلالات من سفك الدماء.. ونشر الرعب في صربيا وكوسوفو.

ولا أحد يدري بالضبط كم عدد الضحايا المدنيين الذين قتلتهم آلاف القنابل والصواريخ التي أمطروا بها سماء تلك المدينة التي كانت هادئة حتى وطئتها أقدامهم السوداء.

كل ذلك بدعوى الإطاحة بنظام رئيس حتى وإن كان ديكتاتوراً فقد كانت كل جريمته فقط أنه لم يتعاون مع النظام الأمريكى.. الرئيس هو «سلوبودان ميلوسوفيتش»[2] الذي ذكر ذات مرة مراسل الـ «B.B.C» في تقرير له: "أن كل قنبلة كانت تسقط فوق بلاده كانت تقوي نظامه.. لا تقوضه"..

وفي حينه أيضاً علق أحد معارضي نظام ميلوسوفيتش على ذلك بقوله "إن الشعب ملتف الآن حول ميلوسوفيتش الذي صار يمثل رمز «المسيح المنقذ» للشعب الصربي في مواجهة الحلف الذي يعمل على تدمير الحضارة الصربية."

---

(١) منظمة حلف شمال الأطلسي اختصارا "الناتو" «NATO» هي منظمة تأسست عام ١٩٤٩ بناءاً علي معاهدة شمال الأطلسي والتي تم التوقيع عليها في واشنطن في ٤ ابريل سنة ١٩٤٩ ويوجد مقر قيادة الحلف في بروكسل عاصمة بلجيكا.. وللحلف لغتان رسميتان هما الإنجليزية والفرنسية.. والدور الرئيسي لهذا الحلف هو حراسة حرية وحماية الدول الأعضاء فيه من خلال القوة العسكرية.. ويلعب دور من خلال الأزمات السياسية وكل الدول الأعضاء فيه تساهم في القوى والمعدات العسكرية التابع له مما يساهم في تحقيق تنظيم عسكري لهذا الحلف.. ويوجد هناك دول ذات علاقات ممتازة بحلف الناتو إلا أنها ليست جزءاً منه بشكل رسمي وتسمى حليف رئيسي لحلف الناتو.

(٢) سلوبودان ميلوسيفيتش «٢٠ اغسطس ١٩٤١- ٢٠٠٦» كان رئيس صربيا ويوغوسلافيا من الفترة بين ١٩٨٩ و ١٩٩٧ ومثُل منذ عام ٢٠٠١ أمام المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهاي.. مكث ميلوسوفيتش سنوات متنقلاً بين السجن والمحكمة والمستشفي.. وكان في كل جلسة من جلسات المحاكمة يسخر من قضاته ولا يعترف بشرعية المحكمة.. ويرفض توكيل محام عنه في ١١ مارس ٢٠٠٦ عثر عليه ميتاً في مركز الاعتقال الذي كان محتجزا به في لاهاي.

THE BLACK BOOK OF AMERICA

لكن ماذا عن خصوصية تلك المنطقة.. وما تشهده دوماً عبر كل تاريخها من قلاقل سياسية؟

نعود بالذاكرة التاريخية للوراء قليلاً.. لنجد أنه وعلى مدار المائة وعشرين عاماً الماضية دارت عجلة الحرب أكثر من مرة في البلقان.. وكانت دوماً مصحوبة بمجازر.. وتهجير لشعوب بأكملها.. وقد تدخلت القوى الإمبريالية دائماً بزعم مساعدة أحد شعوب البلقان.. وكانت نتيجة هذا التدخل في أفضل الأحوال تجميد الصراع بشكل مؤقت.. ليعاد بعد سنوات قليلة بشكل أعنف.. أما في أغلب الحالات فقد كانت النتيجة تصعيد للمجازر وآلاف القتلى وتسميم العلاقات بين شعوب المنطقة.

ففي هذه المنطقة الواقعة في جنوب شرق أوروبا يعيش عدد كبير من الشعوب.. فهناك السلوفيين.. والكروات.. والصرب.. والألبان.. والبوسنيين.. والمجريين.. وسكان الجبل الأسود.. والمقدونيين واليونانيين.. والبلغار.. والأتراك.. والبوماك.. والإيطاليين.. والغجر.. واليهود.. وغيرهم.. وقد عاشت هذه العرقيات المختلفة أغلب تاريخها في تآخي وسلام.. يتكلمون بلغات مشتركة ولم يكن العنف جزء من طبيعة حياتهم.

كانت منطقة البلقان من أفقر المناطق في أوروبا وكانت نقطة التقاء ثلاث إمبراطوريات ضخمة هم الروسية والنمساوية والعثمانية في القرن التاسع عشر.. ومع انتهاء ذلك القرن بدأت الدول الصناعية الحديثة مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا في الاهتمام بهذه المنطقة.

وقد واجهت كل الحركات التي ظهرت في البلقان في أواخر القرن التاسع عشر من أجل محاولة بناء دول قومية مستقلة عقبتان أساسيتان.. الأولى هي أن الدول الإمبريالية الكبرى كانت تريد تقسيم البلقان بينها.. والعقبة الثانية هي عدم إمكانية بناء دول قومية في منطقة بهذا التنوع العرقي والقومي دون الدخول في حروب بين القوميات المختلفة.. وهذا ما أشار إليه في كتاباته (ليون

تروتسكي) عن البلقان عام ١٩١٣ هذه العوامل كانت تعني أن الحركات القومية تأخذ جانب إحدى القوى الإمبريالية.. فقد قال تروتسكي :

"أنه في شبه جزيرة البلقان لا توجد مساحة للسياسات القومية إلا إذا تطابقت هذه مع السياسات الإمبريالية"..

وقد تمزقت هذه المنطقة بالنزاعات بين نصف دستة من الحركات القومية المختلفة وارتباطاتها مع القوى الإمبريالية"..

فحينما طالب الشعب البوسني بالاستقلال عام ١٨٧٥ تعارض هذا مع الإمبراطورية العثمانية التي كانت تسيطر على أغلبية أراضي البلقان.. ولكن حكام بلغاريا وجدوها فرصة لكسب بعض الأراضي من الأتراك.. أما روسيا القيصرية والتي كانت تزعم حماية الشعوب السُلافية في المنطقة فقد أعلنت الحرب على تركيا عام ١٨٧٧ أما القوى الإمبريالية الأخرى فقد فرضت معاهدة برلين عام ١٨٧٨ والتي أعادت تقسيم البلقان بشكل يتسق مع المصالح الإمبريالية.

وبالتالي أصبحت البوسنة مستعمرة نمساوية.. ومع قدوم ١٨٨٥ كانت بلغاريا وصربيا في حرب على الرغم من كونهما من أكثر من عانى على يد الجيش التركي.. ووقتها كما الآن.. كانت هناك تقارير عن النساء والأطفال الذين يموتون في المجاعة وعن اغتصاب النساء والتهجير القسري والفظائع الأخرى.

وتفجرت الحرب مرة أخرى عام ١٩١٢ عندما حاولت كل من اليونان وبلغاريا وصربيا طرد الدولة العثمانية الواهنة من المنطقة.. ثم دخلت في حروب مع بعضها البعض عام ١٩١٣ حول توزيع الأراضي.. ومرة أخرى تدخلت القوى الأجنبية وحولت الحركات القومية المختلفة على بعضهم البعض وفرضت معاهدة لندن وبروتوكول فلورنسا على مختلف القوى المتحاربة عام ١٩١٣ وقد أيدت كل من بريطانيا وألمانيا تكوين دولة ألبانية لتوازن التأثير الروسي على بلغاريا وصربيا.

وتفجرت المنافسة بين القوى الإمبريالية في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فبريطانيا.. والتي كان من المفترض أن تحمي الدولة الألبانية.. كانت قد وقعت

THE BALKANS AND THE MIDDLE EAST

على اتفاقية سرية مع إيطاليا تقوم بموجبها بالتخلي عن ألبانيا في مقابل أن تؤيدها إيطاليا في الحرب ضد ألمانيا.. وعانت شعوب البلقان بشكل ضخم خلال الحرب نفسها.. فقد تم تهجير المدنيين الصرب مئات الأميال بعيداً عن موطنهم.. وقامت القوات النمساوية بقصف طوابير اللاجئين.. حتى أنه لم يعد هناك سوى مساحة من الخراب في وسطها آلاف البشر يعانون وبلا أمل".

وراح اللاجئون يلعنون من تخلوا عنهم وكان من الممكن سماع صيحات على شاكلة:

"لماذا لم تأتي روسيا؟ أين الفرنسيون؟ هل نسينا البريطانيون؟"

وأسفرت نهاية الحرب عن صعود سلسلة من الأنظمة المتسلطة سيطرت على البلقان في العشرينات والثلاثينات.. ادعت تمثيل أحد القوميات واضطهدت القوميات الأخرى.

ومع الحرب العالمية الثانية اجتاحت قوات المحور الألمانية المنطقة عام ١٩٤١ وأقامت حكومة نازية سيطر عليها الكروات تحت قيادة أوستاتشي.. وتحت قيادة هذا النظام أنزل القوميون الشوفينون الكروات والألبان أشد الانتقام من الصرب الذين كانوا القوة المهيمنة في مملكة الصرب والكروات ما قبل الحرب.

وقام نظام أوستاتشي بقتل ٦٠٠ ألف من الصرب واليهود والغجر الأمر الذي نال إعجاب أجهزة الاستخبارات النازية والذي ذكر في تقرير له عام ١٩٤٢:

"إن رجال أوستاتشي قامت بمجازر ليس فقط ضد الرجال في سن التجنيد ولكن ضد كبار السن والنساء والأطفال".

وجاء في كتاب «تاريخ كوسوفو»[1] إن الوحدة «٢١» المُشكلة من متطوعين ألبان قامت بقتل العديد من الصرب ومواطني الجبل الأسود في كوسوفو."

كما قامت القوميات الأخرى بتسوية حساباتها في مناطق عديدة..

(١) مؤلفته هي الكاتبة الغربية الشهيرة ميراندا فيكرز.

THE BLACK REPORT ON USA
obeikandl.com

إذن نحن أمام حالة تاريخية تؤكد أن لقد فجرت القوى الإمبريالية العداوات بين شعوب المنطقة.

ولكن على الجانب الآخر.. فقد أوضحت حركة المقاومة ضد جميع القوى الظالمة داخلياً.. وخارجياً إلى أي درجة يريد العمال والفلاحين من مختلف العرقيات العيش سوياً في سلام على الرغم من ألاعيب الإمبريالية والحكام المستبدين.. فحركة الأنصار التي قادت فيما بعد يوغوسلافيا تشكلت أساساً من الصرب.. ولكنها ضمت كروات وألبان وبوسنيين ويهود وغيرهم.. وكان قائد الحركة هو «جوزيف بروز تيتو»[1] وهو نصف كرواتي وكان رئيس يوغوسلافيا الاتحادية التي تشكلت بعد الحرب حتى وفاته في منتصف الثمانينات.

وفي عهده احتوت يوغوسلافيا على الصرب والكروات والسلوفاك والمقدونيين وأهل كوسوفو والجبل الأسود وغيرها من القوميات وتمتعت القوميات المختلفة بدرجة من الاستقلالية والحكم الذاتي حتى عهد قريب..

ونظام تيتو لم يكن نظام اشتراكي أو شيوعي ولكنه كان أحد صور رأسمالية الدولة..

وفي ظل الانتعاش الرأسمالي العالمي فيما بعد الحرب استطاع تيتو أن ينمي الاقتصاد اليوغوسلافي كما استطاع أن يوازن علاقاته بين روسيا والولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة من خلال حركة عدم الانحياز.

لم تختف الخلافات القومية بشكل تام ولكن الازدهار الاقتصادي مكن الدولة المركزية من الموازنة بين القوميات المختلفة.

ولكن مع دخول الأزمة يوغوسلافيا في السبعينات ثم في الثمانينات سقط هذا التوازن.. وظهر سياسيون مثل سلوبودان ميلوسوفيتش في صربيا وفرانكو تودجمان في كرواتيا لعبوا على النعرات القومية من أجل احتواء وإجهاض

(١) نتحدث عه في فصل (هؤلاء تحدوا الشيطان).

THE BLACK HOLE OF CAPITALISM

obeikandi.com

الاحتجاجات العمالية والجماهيرية المتصاعدة التي كانت تهدد سيطرتهم على الحكم..

ومن خطوة.. إلى أخرى..

ومن مرحلة إلى التالية..

انتهي الأمر بالبلاد لحكم "سلوبدان ميلوسيفتش" فكيف جاءت نهايته؟

بداية النهاية لسلوبدان ميلوسيفتش

البداية قيام وحدات من الجيش الصربي بحرب همجية ضد جيش تحرير كوسوفو.. وراح ضحية هذه الحرب ما يزيد عن ألفي شخص من المدنيين وأعضاء الحركة.. ولكن تدخل حلف الأطلسي بدلاً من أن ينقذ المدنيين الألبان زاد أعداد الضحايا بينهم..

ولم يجلب تدخل الولايات المتحدة وحلف الناتو السلام لتلك البلاد.. بل زاد من التوتر في منطقة كانت من الأساس تزخر بأسباب التوتر.. فرئيس ألبانيا السابق صالح بريشا[1] كان يحرض في شمال البلاد للحرب مع صربيا.. وكان هناك إمكانية حقيقية لتفتيت مقدونيا حيث كان خُمس سكانها من الألبان الذين يطالبون بالانفصال والانضمام إلى ألبانيا.. ولكن كان معنى حدوث ذلك هو جر قوى أخرى مثل بلغاريا[2] وبالطبع تركيا واليونان.

كيف تَكَون جيش التحرير؟

أما عن جيش تحرير كوسوفو فقد تم تكوينه عام ١٩٩٥ بعد تجاهل قضية كوسوفو في اتفاقيات السلام في البوسنة.. وكان يحظى بتأييد ضخم من الشعب الألباني في كوسوفو.. إلا أن الاستراتيجية الكارثية التي اتبعها قادة هذا الجيش قادتهم إلى الفشل.. وبدلاً من التحالف مع القوى الديمقراطية المعارضة

(١) ديكتاتور ألبانيا السابق أطاحت به الجماهير قبل عدة أعوام.. وسقط على يد الانتفاضة الشعبية في ألبانيا.

(٢) تمثل "جنوب بلغاريا" جغرافياً أغلب الأراضي المقدونية.

THE BLACK REPORT .COM.US

obeikandi.com

لميلوسوفيتش لجأوا للجناح الأكثر يمينية ورجعية من القوميين الألبان.. فتدريبات الجيش العسكرية كانت تجرى على أراض ملك صالح بريشا.. ثم تحالفوا مع الإمبريالية الأمريكية.. وتداخلت لديهم الرؤى لدرجة أن المتحدث باسم جيش تحرير كوسوفو صرح ذات مرة قائلاً :

"إن منقذنا الوحيد هو حلف شمال الأطلنطي"

وكان قادة الجيش على اتصال دائم بقوات حلف الناتو.. ومن هنا بدأت مأساة الألبان.. فعندما تواجه حركة للتحرر الوطني ضعيفة خصماً أقوى بكثير فإنها تلجأ إلى كسب مساندة أحد القوى العظمى.. لكنها في النهاية تقع فريسة هذه القوى العظمى ذاتها.. كما حدث.. ويحدث الآن في أفغانستان.

أمريكا.. ودورها الزائف هناك

وتلألأ في سماء الأحداث البريق الزائف للدعاية الغربية حول ما يسمونه "الدور الإنساني" الذي تقوم به أمريكا وبريطانيا.. ففي الوقت الذي تذهب فيه قوات الناتو للدفاع عن الألبان في كوسوفو نجد الأكراد يعانون الأمرين على أيدى جيش تركيا عضو الناتو.. وحليفة الولايات المتحدة وتابعها إسرائيل.. ولا يغض الأمريكيون الطرف عن فظائع تركيا ضد الأكراد فحسب.. ولكنهم ساعدوها على اختطاف زعيمهم أوجلان[1] وسجنه مدى الحياة.

ولكن لماذا تدخلت أمريكا في البلقان..

تدخل الحلف.. ومن وراءه الولايات المتحدة عندما تصاعدت حدة أصوات المعارضة لميلوسفيتش.. فلماذا تصاعدة ضده أصوات المعارضة.. وما هي شواهد لك؟

ضد الطاغية

- في إبريل ١٩٩١ أضرب ٧٠٠ ألف عامل في صربيا واضطر ميلوسوفيتش لاستخدام الجيش لاستعادة النظام..

(١) نتحدث عنه في فصل (هؤلاء تحدوا الشيطان).

obeikandl.com

- وفي ١٩٩٦ خرج عمال وطلبة صربيا للتظاهر ضد تزوير ميلوسوفيتش للانتخابات واستمرت حركتهم لأسابيع عديدة وهددت النظام بشكل حقيقي وأجبرت ميلوسوفيتش على التراجع عن قراراته بإلغاء نتائج الانتخابات.

وتوالى مثولُ مجرمي الحرب الكروات أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي..جميعهم متهمون بقتل رجال ونساء وأطفال وتدمير المنازل والمساجد..

المفاجأة أنه من المعروف أن الولايات المتحدة وحلف الأطلنطي كانوا يساندون الكروات أثناء حرب البوسنة.

مع التفرقة.. وضد التوحد

كما ساندت الولايات والغرب اتفاق دايتون للسلام في البوسنة والذي قَسَمَ البلاد على أسسٍ قومية عرقية خالصة «جزءٌ للمسلمين.. وجزءٌ للصرب.. وجزءٌ للكروات» الأمر الذي يدلل على مساندة أمريكا والغرب لمبدأ التقسيم «والتطهير العرقي» كأساس للتصالح.. وقضى على أي محاولات بذلها بعض أعضاء القوميات المختلفة للوصول إلى حل للتعايش السلمي بين تلك القوميات.. وهو نفسه ما يحدث الآن في السودان.. وعلى يد نفس الشيطان القابع أسفل تمثال الحرية.

إن تاريخ تدخل القوى الإمبريالية في البلقان هو تاريخ بحت يشير لدورهم المتكرر في مساندة الطغاة.. وإذكاء الحروب القومية.. والفرقة بين أبناء الوطن الواحد هو روشتة العلاج التي يظهرونها دوماً للشعوب المستضعفة..

وكل ذلك لم يكن أبداً لوقف الظلم.. أو نصرة المقهورين.. ففي كل مرة كان المستفيد هو أحد المجموعات الحاكمة أو غيرها.. وكان الثمن يدفعه دوماً الفقراء من كل القوميات والأعراق.. ولم تكن حملتهم على كوسوفو استثناءاً من هذا التاريخ.

أما فاتورة الحساب التي تزاحمت فيها الأرقام.. ما بين عشرات الآلاف من الضحايا.. مدنيين.. وعسكريين.. أطفالاً.. وشيوخ.. فقد أُضيفت لحساب أبناء العم سام.. لتثقل ميزان أفعالهم.. وكوارثهم أكثر.. وأكثر.. وكان عنوانها الأساسي «الدمار.. الخراب.. التشتت»..

❖❖❖

THE BLACK REPORT ON USA